الأسرارالبيانية لآيات النعم المعنوية
دراسة تطبيقية في سورة النحل

أ. خولة حدادي
المشرف : عبد الناصر بن طناش
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص:

عالج القرآن الكريم من خلال آياته الكريمة نعما كثيرة، أصبغها الله سبحانه على الإنسان كرما منه وسخّرها لأجله فضلا ومنة، ويعدّ الحديث عن النّعم المعنوية إحدى أعظم ما أشارت به آياته، بإشارات في غاية الدّقة في التعبير، وجمال البيان عن محتواها وموضوعاتها، ومن جملة آيات النّعم المعنوية التي شدت إليها خوالج نفسي وأثارت فكري واهتمامي، آيات نعمة الأمن والطمأنينة، ونعمة إنزال الوحي، ونعمة إرسال الرسل، ونعمة الهداية وغيرها كثير...وقد كان ذكرها يهدف إلى تذكير الإنسان بفضل الله تعالى عليه. فقد سخر لها ألفاظ فأحسن نظمها وتراكيب معبرة فأحسن بيانها، تؤكد جميعها عظمة منشئها وخالقها وعظمة هذا الكتاب - القرآن الكريم-، وأنّه المعجزة الخالدة التي أيّد الله بها نبيّه الكريم ﷺ. وتأتي هذه الدراسة محاولة للكشف عن أسرار آياتها البيانية بالوقوف عند نماذج منها فيما ذكرته "سورة النحل" وأبانت عنه .

Summary

The holy quran, through its many verses, has addressed many blessings, which allah has enjoined upon man as a vineyard, and he has mocked it for his sake, for the moral blessings one of greatest sings of his sings, with very precise signs of expression, and the beauty of the statement about the content and themes, And among the verses of the moral blessings that khawalj drew upon myself and raised my thoughts and concerns, the signs of the grace of security and tranquility, and the grace of the descent of the neighborhood, and the grace of sending the apostles, and the blessing of guidance and many others...the mention was intended to remind the human god thanks to him, he ridiculed her and the best of its systems and structures expressed and the best statement, all confirm the greatness of its origin and creator and the greatness of this book-the holy quran - and that the eternal miracle that god supported by the prophet peace be upon him. This study comes as an attempt to reveal the secrets of its graphic verses by standing in modles of them, as mentioned by « **AL-Nahl** » and expressed it.

المقدمة :

إنّ أسلوب القرآن الكريم أسلوب فريد غير مسبوق، عجز عن الإتيان بمثله جهابذة البلاغة والفصاحة والبيان، رغم أنّه نزل بلغة العرب، ناهجا أسلوبهم في الكلام، ولكنهم عجزوا عن معارضته رغم بلوغهم أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، قال تعالى: :{**قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**} [الإسراء:88]، وقد جعله الخالق ﷻ معجزة بيانية خالدة صالحة لكل زمان ومكان، فظل بسحر بيانه ونظمه وسبك عباراته، حقلا خصبا ينهل منه العلماء والدارسون على مرّ الأزمنة، ولم يتركوا جانبا من جوانبه إلّا وتناولوه بالدراسة، ومن هذه الجوانب الكثيرة الدراسة البيانية للقرآن الكريم.

وغير خفي لكل متدبر لكتاب الله تعالى أنّه يشتمل على آيات كثيرة، تعالج مواضيع متعددة، كآيات الأحكام وآيات العذاب، آيات النعم التي دعت العباد إلى شكر الله عليها... وهذه الأخيرة قد لفتت انتباهي، وشكلت أهمية بالغة قوّت في نفسي الحرص على دراستها، واستخراج ما فيها من كنوز بيانية معجزة خاصة المعنوية منها كنعمة الأمن والطمأنينة، نعمة الإلهام، نعمة الوحي، نعمة إرسال الرسل، نعمة الهداية ...وهاتان الأخيرتان هما محل دراستي لأنهما أعظم النعم فالله ما أنعم على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم أنّه لا إله إلّا الله، والحمد لله على نعمة الإسلام.

1ـ الإعجاز البياني

الإعجاز لغة: تعدّدت تعاريف علماء اللّغة للفظ الإعجاز،حيث نلحظ تشابها في بيان معناها اللّغوي.

حيث يقول الخليل الفراهيدي (175ه) في كتاب العين:" أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، والعَجزُ نقيض الحزم، وعَجَزَ يعجزُ عَجزًا فهو عاجز ضعيف "[1].

وذكر ابن منظور (711ه) في لسان العرب:" عَجَّزَ فلان رأي فلان إذا نسبه إلى خلاف الحزم كأنّه نسبه إلى العجز، ويقال: أعْجَزْتُ فلانا إذا ألفيته عاجزًا، والمعْجزة بفتح الجيم وكسرها مَفْعَلة من العَجْزِ: عدم القدرة، وقيل أراد بالعجز: ترك ما يجب فعله بالتّسويف وهو عام في أمور الدّين والدّنيا، وأَعْجَزَه الشّيء: عجز عنه، ومعنى الإعجاز الفوت والسّبق، يقال: أعجزني فلان أي فاتني، ويقال عَجَزَ: يعْجِز عن الأمر إذا قصر عنه، وأعجاز الأمور أواخرها، والتّعجيز التّثبيط"[2].

نستخلص مما سبق أنّ المدلول اللّغوي للإعجاز يدور حول معانٍ متعدّدة، منها: الضّعف وعدم القدرة، والفوت والسّبق، والقصور عن فعل الشّيء، والتّثبيط.

الإعجاز اصطلاحا: هو إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرّسالة، بإظهار عجز العرب عندئذ عن معارضتهﷺفي معجزته الخالدة وكذلك عجز الأجيال القادمة من بعدهم[3].

([1])- الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، تح : مهدي المخزومي وإبراهيم السّامرّائي، دار ومكتبة الهلال، دط، (مادة عجز)، ج1، ص215.

([2])- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدّين)، لسان العرب، ضبط نصّه وعلّق حواشيه خالد رشيد القاضي، دار صبح، إديسوفت، بيروت- لبنان، ط1، 1427ه-2006م، (مادة عجز)، ج9، ص54-55.

([3])- محمّد أحمد معبد، نفحات من علوم القرآن، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، ط1، 1406ه-1986م، ص118.

لقد تفوق أسلوب القرآن بنظمه وبيانه وسبك عباراته على أساليب العرب، ونظمهم رغم بلاغتهم وبلوغهم الغاية في هذا المضمار، لذا نجد الإعجاز البياني من أهم وجوه إعجاز القرآن الكريم؛ فهو يلازم القرآن الكريم في كلّ مفرداته وآياته وسوره.

ويقوم **مفهوم الإعجاز البيانيّ** على محاولة تفسير سبب الإعجاز الحاصل في القرآن في ضوء قواعد اللغة ومقاييسها مما ألفه العرب في كلامهم... وتعتمد فكرة الإعجاز البيانيّ على دراسة أساليب القرآن الكريم البيانيّة ومقابلتها بأساليب البلغاء، ثمّ استخلاص عناصر الجودة في الأولى ومواضع التقصير في الثّانية ليظهر مقدار التميّز الحاصل في القرآن على كلام الفصحاء الذين استوت لديهم ملكة البيان والفصاحة[1].

2- التعريف بسورة النحل.

أ- اسم السورة،عدد آياتها،سبب تسميّتها، مكيّها ومدنيّها.

سورة النحل هي السورة السادس عشرة في القرآن الكريم من بين مائة وأربع عشرة سورة ووقعت بعد سورة الحجر، وآياتها مائة وثمان وعشرون،وكلماتها ألفان وثمان مائة وأربعون وحروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف[2]، ومجموع فواصل آياتها(نمرّ) منها اثنتان على الرّاء، أخراهما "قدير"[3]. وشبه الفاصلة إثنا عشر: قصد السبيل، وما يشعرون، ما تسرون وما يعلنون، ما يشاءون طيبين ما يكرهون، يؤمنون، هل يستوون، وباق قليل، وعكسه خمسة: ما لا تعلمون، وما تعلنون وهم مستكبرون، فيكون، لا يفلحون[4].

وتسمّى سورة النحل كما أخرج ابن أبي حاتم "سورة النّعم"، قال ابن الفرس:" لمّآ عدّد الله فيها من النعم على عباده"[5].

وسمّيت لاشتمالها في الآيتين: { **أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (68) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا** }[النحل:69] على قصة النحل التي ألهمها الله امتصاص الأزهار والثمار، وتكوين العسل الذي هو شفاء للناس، وتلك قصة عجيبة مثيرة للتّفكير

([1])- مجموعة من الأساتذة، جهود الأمة في خدمة القرآن الكريم وعلومه، مراجعة: فريق البحث بالمركز تحت إشراف محمد المنتار، مدينة فاس، المملكة المغربية، ط1، 1434هـ-2013م،مج5، ص2451-2452.

([2])- محمد علي طه الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه(من سورة إبراهيم إلى طه)، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ط1، 1430هـ-2009م، مج5، ص142.

([3])-الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تح: محمد علي النجار القاهرة، ط3، 1416هـ-1996م، ج1، ص278.

([4])- الدمياطي (شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغاني)، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، وضع حواشيه: أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ-1998م، ص349.

([5])- الآلوسي (أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ-1994م، مج7، ج1314، ص332.

والتأمّل في عجيب صنع الله تعالى، والاستدلال بهذا الصنع على وجود الله سبحانه[1]، وأطلق جمع القول بأنها مكيّة، وأخرج ذلك ابن مردويه عن ابن عباس و ابن الزبير رضي الله تعالى عنهم وأخرج النّحاس من طريق مجاهد عن الحبر أنها نزلت بمكة، سوى ثلاث آيات من آخرها فإنّهن نزلن بين مكة والمدينة في منصرف رسول الله ﷺ من أحد، وروى أميّة الأزدي عن جابر بن زيد أنّ أربعين آية منها نزلت بمكة وبقيتها نزلت بالمدينة، والذي ذكره الدّاني في كتاب "العدد" أنّها تسعون وثلاث وقيل: أربع، وقيل:خمس في سائر المصاحف، وتحتوي من المنسوخ: قيل على أربع آيات بإجماع وعلى آية واحدة مختلف فيها[2]، في قوله تعالى:{**مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ...عَظِيمٌ**} [النحل:106]، نسخها قوله[3]:{**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا**} [النحل:110]. وروى مجاهد وعطيّة وابن أبي طلحة عن ابن عباس أنّها مكيّة، وكذلك روي عن الحسن وعكرمة وعطاء أنها مكيّة كلها، وقال ابن عباس في رواية: "إنّه نزل منها بعد قتل حمزة ، قوله تعالى:{**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**}[النحل:126]، وقال في رواية: هي مكيّة إلا ثلاث آيات نزلن بالمدينة، وقال قتادة:"هي مكيّة إلا خمس آيات:"ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا" ومن قوله إلى:"وإن عاقبتم" آخرها. وقال ابن السائب:"هي مكيّة إلا خمس آيات". و مقاتل:" إلا سبع آيات[4]، وقال عطاء:"نزل منها في المدينة من قوله تعالى: "وإن عاقبتم فعاقبوا" إلى آخر السورة نزلت في وحشيّ قاتل حمزة ﷺ وباقيها نزل بمكة "[5]. والزجّاج يقول:"مكية ما سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن نزلن بين مكة والمدينة"[6]، وقال فخر الدين الرازي:" إنّها مكيّة غير ثلاث آيات في آخرها"، وحكى الأصمّ عن بعضهم أنّها كلها مكيّة، وقال آخرون:"من أوّلها إلى قوله: {**كُنْ فَيَكُونُ**} [النحل: 40] مدني، وما سواه فمكي"[7]، ولا يوجد في القرآن سورة مبدوءة بما بدئت به ولا بما ختمت به، ولا

([1])- وهبة الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر، دمشق، ط2، 2003م،ط10، 1430هـ 2009م، مج7،ج14، ص387.

([2]) ـ الآلوسي، مصدر سابق، مج7، ج13-14، ص332.

([3])- الزهري، الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، تح: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة،ط3، 1418هـ-1998م، ص29.

([4])-الجوزي (جمال الدين بن فرج عبد الرحمان بن علي بن محمد)، زاد المسير في علم التفسير، تح: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1422هـ، ج2، ص548.

([5])- القرطبي (أبو القاسم عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب)، المفتاح في إختلاف القراء السبع، تح: فهد بن مطيع المغذّوي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط1، 1427هـ، ج2، ص650-651.

([6])- الزجاج (أبو إسحاق إبراهيم ابن السري)، معاني القرآن وإعرابه، تح:عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت ط1، 1408هـ-1988م،ج3، ص189.

([7])- الرازي (محمد فخر الدين بن ضياء الدين عمر)، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط11401هـ-1981م، ج19، ص222.

يوجد مثلها في عدد الآي[1]. وفي ترتيب نزول السور نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة أي تكون هي الثانية والسبعين، أمّا في ترتيب المصحف الشريف فهي السورة السادسة عشرة[2].

من خلال ما تقدم نجد أن العلماء اتفقوا على تسمية سورة النحل بسورة النّعم، وذلك لما عدد الله فيها من النعم على عباده، واختلفوا في مكيها و مدنيها، فأجمع العلماء على أنّها مكيّة، ولكن اختلفوا في بعض آياتها هل هي مكيّة أم مدنيّة، كما تحتوي من المنسوخ على أربع آيات بإجماع وآية واحدة مختلف فيها.

ب- سبب نزول السورة ومناسبتها لما قبلها وما بعدها.

- **سبب النزول**: كان المشركون يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة، ونزول العذاب بهم يوم بدر استهزاء وتكذيبا بالوعد فقيل لهم: {**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ**} [النحل:1]؛ أي: هو بمنزلة الآتي الواقع - وإن كان منتظرا- لقرب وقوعه {فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[النحل:1] تبرّأ ﷻ عن أن يكون له شريك، وعن إشراكهم[3].وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير و ابن أبي حاتم عن أبي بكر بن حفص قال: لمّا نزلت "أتى أمر الله"قاموا فنزلت الآية[4] "فلا تستعجلوه".

- مناسبتها لما قبلها وما بعدها:

أ- مناسبتها لما قبلها: إنّ آخر سورة الحجر شديد الارتباط بأوّل هذه السورة، فإنّ قوله تعالى في آخر السورة السابقة: {**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**}[الحجر:92]، يدل على إثبات الحشر يوم القيامة وسؤالهم عمّا فعلوه في الدّنيا، وكذلك قوله تعالى: {**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**}[الحجر:99]يدل على ذكر الموت، وكل من هاتين الآيتين ظاهر المناسبة لقوله هنا في أول السورة: "أتى أمر الله فلا تستعجلوه" إلاّ أنه في الحجر أتى بقوله:"يأتيك" بلفظ المضارع وهنا "أتى"بصيغة الماضي؛ لأنّ المراد بالماضي هنا: أنّه بمنزلة الآتي الواقع وإن كان منتظرا لقرب وقوعه وتحقق مجيئه[5]. وبالتّأمل في مختتم سورة الحجر [في طلب التنزيه والتسبيح حتى يأتي اليقين]، ومفتتح سورة النحل [في تحقق إتيان أمره تعالى] يتجلى الربط الوثيق في مدى صدق الرسول السراج المنير والتنويه بأمانته، فهو[6]:{**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**}[النجم: 3-4]،{**يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**}[النحل:2]. وكذلك ترتبط هذه السورة بسورة إبراهيم؛ لأنّه تعالى

([1])- عبد القادر بن ملّا حوشي السيد محمد آل غازي الغاني، بيان المعاني، مطبعة الترقي، دمشق، ط1، 1382هـ 1965م، ج4، ص210.

([2])- محمد بن إبراهيم سعيد كعباش، نفحات الرحمان في رياض القرآن، جمعية النهضة، غرداية، الجزائر، د ط، 1428هـ 2007م، ج7، ص323.

([3])- النسفي (أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود)، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تح:يوسف علي الديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، ط1، 1419هـ-1998م، مج2، ج14، ص102.

([4])- السيوطي (عبد الرحمان بن أبي بكر جلال الدين)، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت، د ط، ج5، ص107.

([5])- وهبة الزحيلي، مصدر سابق،مج7، ج14، ص387-388.

([6])- محمد الصادق قمحاوي، الإيجاز والبيان في علوم القرآن، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط1، 1427هـ-2006م ص247.

ذكر فتنة الميّت، وذكر هنا {**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ** }[النحل:28-32]، وما يحصل عقب ذلك من النعيم أو العذاب، وذكر أيضا النعيم في سورة إبراهيم، وقال بعده: {**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**} [إبراهيم:34]، وكرّرت الآية نفسها هنا:{**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**}[النحل:18]، وذكر هنا أنواع النعم المختلفة[1]، يقول الغرناطي:"هذه السورة في التحامها في سورة الحجر مثل الحجر بسورة إبراهيم من غير فرق، لمّا قال تعالى:{**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**} [الحجر: 92-93]، وقال بعد ذلك في وعيد المستهزئين {**فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**}[الحجر: 96]، عقّب هذا ببيان تعجيل الأمر فقال تعالى: {**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ**}[النحل:1]، وزاد هذا بيانا قوله سبحانه وتعالى: {**عَمَّا يُشْرِكُونَ**}[النحل:1]، فنزّه سبحانه وتعالى عمّا فاهوا به في استهزائهم وشركهم وعظيم بهتهم، وأتبع ذلك تنبيها وتعظيما[2]:{**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**}[النحل:3]".

ويقول السيوطي أيضا في معرض حديثه عن ارتباط السورة بما قبلها وما بعدها: "وجه وضعها بعد سورة الحجر أنّ آخرها شديد الالتئام بأول هذه، فإنّ قوله في آخر تلك: {**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**} [الحجر:99]، الذي هو مفسّر بالموت ظاهر المناسبة لقوله هنا:{**أَتَى أَمْرُ اللَّهِ**}[النحل:1]، وانظر كيف جاء في المتقدمة بـ: "يأتيك اليقين" بصيغة المضارع، وفي المتأخرة بصيغة الماضي؛ لأنّ المستقبل سابق على الماضي كما تقرّر في المعقول والعربية، ثمّ ظهر لي أنّ هذه السورة شديدة الاعتلاق بسورة إبراهيم، وإنّما تأخرت عنها لمناسبة الحجر، لكونها من ذوات"ألر"، وذلك أن سورة إبراهيم وقع فيها ذكر فتنة الميت ومن هو مثبت وغيره وذلك أيضا في هذه بقوله: {**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ**} [النحل:28]فذكر الفتنة وما يحصل عندها من الثبات والإضلال، وذكر هنا ما يحصل عقب ذلك من النعيم والعذاب، ووقع في سورة إبراهيم: {**وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ**}[إبراهيم:46]، وقد قيل: إنّها في الجبّار الذي أراد أن يصعد السماء بالنّسور، ووقع هنا أيضا في قوله تعالى:{**وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ**}[النحل:26]، ووقع في سورة إبراهيم ذكر النعم وقال عقبها: {**وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا**}[إبراهيم:34]، ووقع هنا ذكر ذلك معقب بمثل ذلك"[3].

ب- مناسبتها لما بعدها: يظهر وجه ارتباط سورة الإسراء بسورة النحل من عدة نواح:

1- أنّه تعالى بعد أن قال تعالى:{**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ**}[النحل:124] فسّر في هذه السورة شريعة أهل السبت وشأنهم، وذكر جميع ما شرعه لهم في التوراة، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس ﷺ أنّه قال: "إنّ التوراة كلّها في خمس عشرة آية من سورة بني إسرائيل".

([1])-وهبة الزحيلي،مصدر سابق، مج7، ج14، ص388.

([2])- الثقفي (أحمد بن إبراهيم بن الزبير)، البرهان في تناسب سور القرآن، تح: سعيد بن جمعة الفلاح، دار ابن الجوزي الرياض، ط2، 1431هـ، ص123.

([3]) ـ السيوطي (عبد الرحمان بن أبي بكر جلال الدين)، أسرار ترتيب القرآن،دار الفضيلة، د ط، ص102.

2- بعد أن أمر الله نبيه ﷺ بالصّبر على أذى المشركين في ختام سورة النحل، بنسبته إلى الكذب والسحر والشعر، سلاّه هنا، وأبان شرفه وسمو منزلته عند ربّه بالإسراء، وافتتح السورة بذكره تشريفا له، وتعظيما للمسجد الأقصى.

3- في السورتين (سورة النحل والإسراء) بيان نعم الله الكثيرة على الإنسان.

4- في سورة النحل أبان تعالى أنّ القرآن العظيم من عنده لا من عند البشر، وفي هذه السورة ذكر الهدف الجوهري من ذلك القرآن.

5- ذكر تعالى في سورة النحل قواعد الاستفادة من المخلوقات الأرضية، وفي هذه السورة ذكر قواعد الحياة الاجتماعية من برّ الأبوين، وإيتاء ذوي القربى...وتحريم القتل والزنى وأكل مال اليتيم، وإيفاء الكيل والميزان بالقسط وإبطال التقليد من غير علم[1].

3- مضمون السورة.

تضمّنت هذه السورة الكلام على أصول العقيدة، وهي: الألوهية، والوحدانية، والبعث والحشر والنشور؛ فبدأت بإثبات الحشر والبعث واقتراب الساعة ودنوّها، معبّرا تعالى بصيغة الماضي الدّال على التحقّق والوقوع قطعا، مثل قوله تعالى:{**اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ**} [الأنبياء:1]...وكل ذلك يدل على أنّ إخبار الله تعالى في الماضي والمستقبل سواء؛ لأنه آت لا محالة، ثمّ أثبتت الوحي الذي كان ينكره المشركون، كما أنكروا البعث، وأنّهم كانوا يستعجلون الرسولﷺ أن يأتيهم العذاب الذي هدّدهم به، ثمّ تحدّث في السورة عن أدلّة القدرة الإلهية في هذا الكون الدالّة على وحدانية الله...كما أوضحت السورة نعم الله تعالى الكثيرة المتتابعة وذكّرت الناس بنتيجة الكفر بها، وعدم القيام بشكرها وإعداد أبواب جهنم للكفار خالدين فيها وإعداد جنات عدن للمتقين الذين أحسنوا العمل في الدنيا. وأبانت فضل الله سبحانه بإرسال الرسل في كل الأمم وحصرت مهمتهم الموحدة بالأمر بعبادة الله واجتناب الطاغوت.

وأبانت السورة مهمة خطيرة للأنبياء في عالم القيامة؛ وهي الشهادة على الأمم بإبلاغهم الدعوة الحقّة إلى دين الله، وعدم الإذن للكافرين في الكلام ورفض قبول أعذارهم. ثم ذكر تعالى أجمع آية في القرآن وهي قوله: {**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ**} [النحل:90] وأعقبها بالأمر بالوفاء بالعهود والوعود، وتحريم نقضها، وتعظيم شروطها وبنودها، وعدم اتخاذ الأيمان الداخلة في العهود والمواثيق وسيلة للخداع والمكر. ثمّ أمر الله تعالى بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند تلاوة القرآن[2]، والتصريح بانعدام سلطانه وتأثيره على المؤمنين المتقين المتوكلين على ربهم، وبيان أن سلطانه على المشركين. وأوضح سبحانه أنّ هذا القرآن نزل به روح القدس على قلب النبي ﷺ فهو كلام الله لا كلام البشر عربي أو أعجمي.

وفي السورة ضرب الأمثال لإثبات التوحيد ودحض الشرك والأنداد من دون الله والكفر بأنعم الله، ورفع الحرج عمن نطق بالكفر كرها، وقلبه مطمئن بالإيمان وإعطاء كل نفس حق الدفاع عن نفسها يوم القيامة وجزاء كل إنسان بما عمل.وفي أواخر السورة عقب الحديث عن الأنعام بيان ما

([1])- وهبة الزحيلي،مصدر سابق، مج8، ج15، ص5-6.

([2])- المصدر نفسه، مج7، ج14، ص388-389.

حرم الله منها، وزجر العلماء عن الإفتاء بالتحريم أو بالتحليل دون دليل، ومقارن ذلك بما حرمه تعالى على اليهود بسبب ظلمهم[1].

أمّا الظّلال العميقة التي تلوّن جوّ السورة كله؛ فهي الآيات الكونية تتجلى فيها عظمة الخلق، وعظمة النعمة، وعظمة العلم والتدبير... كلها متداخلة...فهذا الخلق الهائل العظيم المدبّر عن علم وتقدير ملحوظ فيه أن يكون نعمة على البشر، لا تلبي ضروراتهم وحدها ولكن تلبّي أشواقهم كذلك، فتسدّ الضرورة. وتتخذ للزينة، وترتاح بها أبدانهم وتستروح لها نفوسهم لعلهم يشكرون... ومن ثم تتراءى في السورة ظلال النعمة وظلال الشكر والتوجهات إليها والتعقيب بها في مقاطع السورة، وتضرب عليها الأمثال، وتعرض لها النماذج، وأظهرها نموذج إبراهيم[2] عليه السلام {**شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**}[النحل:121]. وفي الختام أشارت السورة إلى مدح إبراهيم عليه السلام، ووصفه بصفاتلم يوصف بها نبّي غيره، ثمّ أمر النبيﷺبإتباع جدّه إبراهيم وسلوك طريقته والصبر على الأذى واحتمال المكاره والمحن[3].

وخلاصة ما سبق أنّ سورة النحل تضمّنت الكلام عن التوحيد، والبعث، والحشر، والألوهية الداخلة تحت مسمى أصول العقيدة، كما أنّها تحدثت عن النعم الكثيرة التي منّ الله بها على عباده، وضرورة شكر الله عليها، وفيها إثبات التوحيد ودحض الشرك والأنداد، وكذا ذكر نعم في الآفاق (الآيات الكونية) التي تدل على قدرة وعظمة الخالق؛ فعظمة الخلق دليل على عظمة الخالق، وفي السورة أمر للنبيﷺ بإتباع سيّدنا إبراهيم عليه السلام الذي ختمت السورة بمدحه.

4- مفهوم النّعم المعنوية

تعريف النّعمة: لغة: النون والعين والميم فروع كثيرة، وعندنا أنّها على كثرتها راجعة إلى أصل واحد يدل على ترفه وطيب عيش وصلاح[4].

تعريف النّعمة إصطلاحا: هي الحالة التي يستلذها الإنسان وهذا مبني على ما اشتهر عندهم من أن الفعلة بالكسر للحالة[5].

تعريف المعنوية: هي الإستعدادات النفسية والعاطفية والعقلية التي تدعم شخصية الإنسان " قويت معنوياته بالنجاح "[6].

([1])- المصدر السابق، مج7، ج14، ص389-390.

([2])- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ط1، 1972م، ط33، 1423هـ-2003م، مج4، ج14، ص2159.

([3])- محمد عبد المنعم الجمال، التفسير الفريد للقرآن المجيد، د ط، مج4، ص1639.

([4]) ـ ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريا)، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر، دط، 1402هـ ـ1981م، (مادة نعم)، ج5، ص 446.

([5]) ـ ينظر: الكفوي (أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني)، الكليات، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1419هـ-1998م، ص912.

([6]) ـ جبران مسعود، الرائد (معجم لغوي عصري)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط8، 1995م، 754.

يمكن أن نستنتج **مفهوما للنّعم المعنوية** كمركب إضافي من التعريفين أنّها تنصب على المنفعة أو الحالة النفسية والعاطفية والعقلية، التي يستلذها الإنسان وتدعم شخصيته كنعمة الوحي ونعمة الإلهام، نعمة الأمن والطمأنينة، نعمة إرسال الرسل ونعمة الهداية وغيرها....

5- دراسة تطبيقية لآيات النعم المعنوية في سورة النحل:

إنّ الله تعالى ذكر في السورة نعمًا معنوية تعلّقت بنفس الإنسان، وسأسعى لمعرفة خبايا وأسرار بعضها كنعمة إرسال الرسل ونعمة الهداية على النحو الآتي:

أ- نعمة إرسال الرسل وأسرارها البيانية

- قال تعال: **{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}**[النحل:36]

المعنى الإجمالي للآية:

يقول الزمخشري (538ه) في الآية: " ولقد أمدّ إبطال قدر السوء ومشيئة الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولا يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت[1]، فكان منهم من هدى الله، فاتبع المرسلين، ومنهم المعاند الذي اتبع سبيل الغي، فوجبت عليه الضلالة، فامشوا في الأرض، وأبصروا بأعينكم كيف كان مآل هؤلاء المكذبين، وماذا حل بهم من دمار لتعتبروا[2].

الدراسة البيانية للآية:

ذكر ابن عاشور في كتابه "التحرير والتنوير" أنّ: الآية عطف على جملة: **{كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ}**[سورة النحل:35]. فقوله تعالى: "ولقد بعثنا في كل أمة" بيان لمضمون جملة: **{فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ}**[النحل:35].

وجملة "فمنهم من هدى الله" إلى آخرها بيان لمضمون جملة " كذلك فعل الذين من قبلهم"[3].

و"لقد بعثنا" جاء الإخبار عن مبعث الرسل مؤكدا بـ (اللام) و(قد)؛ لأنّ الآية في سياق تهديد للمشركين الرافضين لدعوة الرسل ، والقائلين بأنّ الله يريدهم أن يكفروا.

قدّم الجار والمجرور في قوله تعالى:{في كل أمّة رسولا}؛ لأن المعنى المقصود أصالة أنه ما خلت أمة عن رسول يبلّغها رسالة الله. حيث جاء {في كل أمّة} ولم يأت " لكل أمة "؛ لأنّ حرف (اللام) يدل على أن بعث الرسول كان لأجل الأمة المبعوث لها، ولكن حرف (في) يدل على الظرفية، والتي يفهم

([1])- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1407ه، ج2، ص605.

([2])- نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ط2، 1430ه - 2009 م، ص207.

([3])- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مؤسسة التاريخ، بيروت، لبنان، ط1، ج13،ص120.

منها دخول الرسول في الأمة؛ كل الأمة، وكل طبقاتها وأفرادها، كي لا تبقى جماعة منها إلا ووصلها البلاغ، فالرسول مرسل للأمة، وزيادة على ذلك هو مرسل في الأمة.

"اعبدوا اللّه" أي وحده، وتأكيداً على توحيد الله جاء الأمر باجتناب الطاغوت، ولم يأت النص (اتركوا)بل "اجتنبوا"؛ لأن الاجتناب ليس تركا فقط، بل هو ترك وزيادة، لأنّ معناه الابتعاد.

"من هدى اللّه" في الآية إلتفات من أسلوب المتكلّم "بعثنا" إلى أسلوب الغيبة "هدى اللّه" ليتم إسناد الهداية إلى الله ؛ لبيان فضله ومنّه ، وللرد على الكفار أن الله يهدي عباده، وأن الضلال الذي هم فيه ليس جبراً من الله بل باختيارهم .

جاء التعبير بـ "حقت عليه الضّلالة" وليس (أضله الله)؛ لأنّ الذي ضل إنما ضل بنفسه فاستحق الضلالة ووجبت عليه ولزمته ، أما الله فإنه لا يرضى لعباده أن يكفروا.

قدّم الجار والمجرور (عليه) في قوله تعالى: "ومنهم من حقّت عليه الضّلالة"؛ لأن سياق الكلام عن الضالين وليس عن الضلالة، ولذا ناسب تقديم (عليه) لإبراز موضوع السياق.

كيف جاء النص بـ (كان) مع أن العاقبة مؤنثة ، وذلك لأن العاقبة ضمّنت معنى العذاب ، وبهذا صار المعنى " كيف كان عذاب المكذّبين"[1]. إضافة إلى أنّ (الفاء) في قوله:"فسيروا في الأرض فانظرو كيف كان عاقبة المكذبين" الأولى دالة على الإفصاح عن شرط مقدر، أو كلام مقدر تقديره فنزل بهم الدمار والهلاك (فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ)، فستجدون الآثار لمن أهلكهم اللَّه، "فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين" أي: انظر الحال التي آل إليها أمرهم بسبب تكذيبهم؛ ولذلك أظهر في موضع الإضمار للدلالة على أن ما أصابهم سببه التكذيب، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم[2].

- قال تعال: {**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُون**}[النحل:43]

المعنى الإجمالي للآية:

ذكر الطبري (310هـ) تفسيرا للآية بقوله: " وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى أمة من الأمم، للدعاء إلى توحيدنا، والانتهاء إلى أمرنا ونهينا، إلا رجالا من بني آدم نوحي إليهم وحيا لا ملائكة، فلم نرسل إلى قومك إلا مثل الذي كنا نرسل إلى من قَبلهم من الأمم من جنسهم وعلى منهاجهم، فسألوا أهل الذكر وإن كنتم لا تعلمون أن الذين كنا نرسل إلى من قبلكم من الأمم رجال من بني آدم مثل

([1])- سامي وديع عبد الفتاح شحاتة القدومي، التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، دار الوضاح، الأردن عمان، د ط، ص94-97.

([2])- أبو زهرة (محمد بن أحمد بن مصطفى)، زهرة التفاسير، دار الفكر العربي، دط، ج8، ص4176.

ﷺ وقلتم: هم ملائكة: أي ظننتم أن الله كلمهم قبل"[1]، فاسألوا أهل الذكر يعني التوراة إن كنتم لا تعلمون[2].

الدراسة البيانية للآية

كانت الآيات السابقة -كما يقول ابن عاشور في تفسيره- جارية على حكاية تكذيب المشركين نبوئته ﷺ وإنكارهم أنه مرسل من عند الله وأن القرآن وحي الله إليه، ابتداء من قوله تعالى: {**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**}[سورة النحل: 24]، ورد مزاعمهم الباطلة بالأدلة القارعة لهم متخللا بما أدمج في أثنائه من معان أخرى تتعلق بذلك، فعاد هنا إلى إبطال شبهتهم في إنكار نبوءته من أنه بشر لا يليق بأن يكون سفيرا بين الله والناس، إبطالا بقياس التمثيل بالرسل الأسبقين الذين لا تنكر قريش رسالتهم مثل نوح وإبراهيم- عليهما السلام-[3].

جاء التعبير بأسلوب القصر "وما أرسلنا من قبلك إلّا رجالا"، وذلك لإبراز قوة الرد على الكفار لنسف مزاعمهم ؛ وهناك الالتفات من الغيبة إلى المتكلم :{**وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (42) وَمَا أَرْسَلْنَا**}[النحل:42-43]، وذلك لعلو شأن إرسال الرسل . وجاء التعبير بأسلوب الخطاب "من قبلك" لا الغيبة (من قبل محمد) تأنيسا للنبي ﷺ ورفعاً لقدره .

يستفاد من قوله تعالى: "إلا رجالا" بأن الله سبحانه لم يبعث من النساء رسولاً ؛ وذلك لأن الأحوال التي يكابدها الرسول من الدعوة والهجرة وخطاب الناس وتحمل الأذى ، لا تتناسب حال النساء.

"فاسألوا أهل الذّكر " كان الخطاب بداية للنبي ﷺ "من قبلك"، ثم اتجه الخطاب إلى الكفار "فاسألوا"؛ لأنّ إقامة الحجة على الكفار مقصد من مقاصد الآية[4].

و"إن كنتم لا تعلمون" إيماء إلى أنهم يعلمون ذلك ولكنهم قصدوا المكابرة والتمويه لتضليل الدهماء، فلذلك جيء في الشرط بحرف إن التي ترد في الشرط المظنون عدم وجوده[5].

وخلاصة القول: أن الله سبحانه وتعالى ذكر في السورة نعما تعلقت بالمنفعة أو بالحالة النفسية أو العاطفية أو العقلية التي يستلذها الإنسان، وهي نعمة إرسال الرسل حيث بعث في كل أمة رسولا يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وجاء النص كما لاحظنا سابقا " في كل أمة " ولم يأت (لكل أمة)، لأنّ حرف (في) يدل على الظرفية، فالرسول مرسل للأمّة، وزيادة على ذلك هو مرسل في

([1])- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م، ج17، ص207-208.

([2])- الأزدي (أبو الحسن مقاتل بن سلمان)، تفسير مقاتل بن سلمان، تح: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث، بيروت، ط1، 1423هـ، ج2، ص470.

([3])- الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج13،ص129.

([4])- سامي وديع القدومي، مصدر سابق، ص123-124.

([5])- الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج13،ص130.

الأمة، كي لا يبقى جماعة منها إلا ووصلها البلاغ والرسول من الرجال؛ لأنّ الأحوال التي يكابدها الرسول من الدعوة والهجرة والآذى...لا تناسب حال النساء.

ب- نعمة الهداية وأسرارها البيانية

- قال تعال :{**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** }[النحل:09]

المعنى الإجمالي للآية:

جاء في كتاب "التفسير المبين" لعبد الرحمان حسن النفيسة أنّه:" لما بيّن تعالى ماخلقه من الأنعام لمنافع خلقه بيّن الطرق التي يسلكونها إليه في حياتهم وجعلها على نوعين: الأول: الطريق الموصل إليه وهو طريق الحق والإيمان. الثاني: زائغ عن الحق ويشمل ذلك الهوى والآراء المختلفة في الدين وهو المقصود بقوله: "ومنها جائر"[1]، ولو شاء اللّه لأنزل آية تضطر الخلق إلى الإيمان به، ولكنه عزّ وجل: يهدي من يشاء ويدعو إلى صراط مستقيم[2].

الدراسة البيانية للآية:

يقول ابن كثير في تفسيره: أنّه لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية، نبّه على الطرق المعنوية الدينية"[3].

هذه الآية جملة معترضة.. اقتضت اعتراضها مناسبة الامتنان بنعمة تيسير الأسفار بالرواحل والخيل والبغال والحمير. فلما ذكرت نعمة تيسير السبيل الموصلة إلى المقاصد الجثمانية ارتقى إلى التذكير بسبيل الوصول إلى المقاصد الروحانية وهو سبيل الهدى، فكان تعهد الله بهذه السبيل نعمة أعظم من تيسير المسالك الجثمانية؛ لأن سبيل الهدى تحصل به السعادة الأبدية. وهذه السبيل هي موهبة العقل الإنساني الفارق بين الحق والباطل، وإرسال الرسل لدعوة الناس إلى الحق، وتذكيرهم بما يغفلون عنه، وإرشادهم إلى ما لا تصل إليه عقولهم أو تصل إليه بمشقة على خطر من التورط في بينات الطريق.

فالسبيل: مجاز لما يأتيه الناس من الأعمال من حيث هي موصلة إلى دار الثواب أو دار العقاب، كما في قوله:{**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي**} [يوسف:108]، ويزيد هذه المناسبة بيانا،أنّه لمّا شرحت دلائل التوحيد ناسب التنبيه على أن ذلك طريق للهدى، وإزالة للعذر، وأن من بين الطرق التي يسلكها الناس طريق ضلال وجور.

والقصد: إستقامة الطريق. وقع هنا وصفا للسبيل من قبيل الوصف بالمصدر[4]، لأنه يقال: طريق قاصد، أي مستقيم، وطريق قصد، وذلك أقوى في الوصف بالاستقامة كشأن الوصف بالمصادر،

([1])- عبد الرحمان حسن النفيسة، التفسير المبين، الدار التدمرية، الرياض، دط، 1429هـ، مج6، ج14، ص130.

([2])- الزجاج، مصدر سابق، ج3، ص192.

([3])- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ضبطه: حسين بن إبراهيم زهران، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط1، 1429هـ-2008م، ج2، ص623.

([4])- الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج13، ص89.

وإضافة قصد إلى السبيل من إضافة الصفة إلى الموصوف، وهي صفة مخصصة لأن التعريف في السبيل للجنس. ويتعين تقدير مضاف لأن الذي تعهد الله به هو بيان السبيل لا ذات السبيل[1].

{وعلى الله قصد السبيل} أي: على الله بيان طريق الحق ، ويدل على هذا حرف (على) الدال على التعهد[2].

وضمير "ومنها" عائد إلى السبيل على اعتبار جواز تأنيثه. و"جائر" وصف لـ "السبيل" باعتبار استعماله مذكرا. أي من جنس السبيل الذي منه أيضا قصد سبيل جائر غير قصد.

ووصفه بالجائر على طريقة المجاز العقلي. ولم يضف السبيل الجائر إلى الله لأن سبيل الضلال اخترعها أهل الضلالة اختراعا لا يشهد له العقل الذي فطر الله الناس عليه، وقد نهى الله الناس عن سلوكها.وجملة ولو شاء لهداكم أجمعين تذييل[3].

- ٹ ٹ {**وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**} [النحل:64]

المعنى الإجمالي للآية

يقول أبو محمد القيسي(437ه) في كتابه "الهداية إلى بلوغ النهاية:" وما أنزلنا عليكم الكتاب يا محمد وجعلناك رسولا إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه من دين الله ﷻ"[4]، لأنهم كانوا في طرق مختلفة: اليهودية، والنصرانية، والمجوسية وغير ذلك. فأمر النبي ﷺ بأن يبين لهم طريق الهدى. وهدى ورحمة، أي: بيانا من الضلالة، ونعمة من العذاب لمن آمن به لقوم يؤمنون بالقرآن[5].

الدراسة البيانية للآية

جاء في تفسير التحرير والتنوير أنّ: الآية عطف على جملة القسم. والمناسبة أنّ القرآن أنزل لإتمام الهداية وكشف الشبهات التي عرضت للأمم الماضية والحاضرة فتركت أمثالها في العرب وغيرهم والإتيان بصيغة القصر في: "وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين" لقصد الإحاطة بالأهم من غاية القرآن وفائدته التي أنزل لأجلها. فهو قصر ادعائي ليرغب السامعون في تلقيه وتدبره من مؤمن وكافر كل بما يليق بحاله حتى يستووا في الاهتداء[6].

"إلّا لتبين" استثناء مفرغ من أعمّ العلل أي: ما أنزلنا عليك لعلة من العلل إلا لتبين "لهم" أي للناس الذى اختلفوا في[7]. واللام في "لتبين" للتعليل ، وقوله تعالى: "لتبين لهم" في موضع المفعول

([1])-المصدر السابق، ج13،ص89.

([2])- سامي وديع القدومي، مصدر سابق، ص26.

([3])- الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج13، ص90.

([4])- القيسي (أبو محمد مكي بن طالب القيرواني)، الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، تح: مجموعة رسائل جامعية، بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، ط1، 1429ه -2008م، ج6، ص4026.

([5])- السمرقندي (أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم)،بحر العلوم، دط، ج2، ص279.

([6])- الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج13،ص157-158.

([7])- العمادي (أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى)، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء إحياء التراث العربي، بيروت، ج5، ص123.

لأجله ، والضمير "لهم" يعود إلى كل المكلّفين أجمعين ، ابتداء من قريش وانتهاء إلى غيرهم من الجن والإنس . تقدّيم الجار والمجرور "عليك" إكراما للنبي ﷺ، ولأنه المعنيّ بأمر تبليغ الرسالة ، فناسب الأمر تقديم ذكره ﷺ.

و"هدى ورحمة" معطوفتان على موضع المفعول لأجله "لتبين لهم"؛ لأنّ المعنى هو: (وأنزلنا عليك الكتاب لأجل البيان والهدى والرحمة). وقدّم ذكر الهدى على الرحمة في الآية ؛ لأنّ الهدى سبب في نزول هذه الرحمة[1]، وذكر الهدى والرحمة هنا إنما هو غرض واحد من أغراض الكتاب، وهو تبيين الذي اختلفوا فيه[2].

وجاء التعبير بـ "قوم" في قوله تعالى: "لقوم يومنون" للإشارة إلى أن الهدى والرحمة إلى من أصبح الإيمان صفتهم التي عليها يجتمعون، ولأجل هذه الصفة المشتركة استحقوا إطلاق "قوم" عليهم، وجاء التعبير بالفعل المضارع "يؤمنون" للإشارة إلى أنّ القرآن هدى ورحمة لقوم يتجدد الإيمان عندهم في الصباح والمساء ، ففي صلاتهم تجدد للإيمان ، وفي ذكرهم لله تجدد للإيمان ، وفي قراءتهم القرآن وفي إطعامهم المساكين ، وفي كل عمل برّ وخير لهم تجدد لإيمانهم [3].

- ﭐ ﭑ **{وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}**[النحل:89]

المعنى الإجمالي للآية

ذكر القشيري (465هـ) في كتابه: لطائف الإشارات:" تأتى- يوم القيامة- كل أمة مع رسولها، فلا أمة كهذه الأمة فضلا، ولا رسول كرسولنا ﷺرتبة وقدرا"[4]. فهذه الآية تفصيلا لأمر البعث في مشاهد مشاهد يعرض فيها المشركين وشركاءهم، والرسل شهداء عليهم. والرسولﷺ شهيدا على قومه. وبذلك تتم هذه الجولة في جو البعث والقيامة[5].

الدراسة البيانية للآية :

يقول أبو حيان الأندلسي في كتابه البحر المحيط في التفسير: لما ذكر إنكارهم لنعمة الله تعالى، ذكر حال يوم القيامة لا ينفع فيه الإنكار على سبيل الوعيد لهم بذلك اليوم[6].

([1])- سامي وديع القدومي، مصدر سابق، ص181-184.

([2])- فاضل صالح السامرائي، الأسئلة البيانية في القرآن الكريم، مكتبة الصحابة، الإمارات، ط1، 1429هـ-2008م، ص107.

([3])- ينظر سامي وديع القدومي، مصدر سابق، ص185.

([4])- القشيري (عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك)، لطائف الإشارات، تح: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط3، ج2، ص314.

([5])- سيد قطب ، مصدر سابق، ج4، ص2185.

([6])- أبو حيان الأندلسي(محمد بن يوسف الغرناطي)، البحر المحيط في التفسير، عناية: زهير جعيد، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، 1426هـ-2005م، ج6، ص579.

وجملة:"ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء" تكرير لجملة {وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا}[سورة النحل:84]، ليبنى عليه عطف جملة "وجئنا بك شهيدا على هؤلاء" على جملة "ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم".

ولما كان تكريرا أعيد نظير الجملة على صورة الجملة المؤكدة مقترنة بالواو، ولأن في هذه الجملة زيادة وصف من أنفسهم فحصلت مغايرة مع الجملة السابقة والمغايرة مقتضية للعطف أيضا.

ولم يوصف الرسول- عليه الصلاة والسلام- بأنه من أنفسهم لأنه مبعوث إلى جميع الأمم، وشهيد عليهم جميعا، وأما وصفه بذلك في قوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ}[التوبة:128] فذلك وصف كاشف اقتضاه مقام التذكير للمخاطبين من المنافقين الذين ضموا إلى الكفر بالله كفران نعمة بعث رسول إليهم من قومهم[1].

و الواو "ويوم نبعث" إستئنافية، والنون للتعظيم ؛ لأنّ هذا الأمر عظيم لا يقدر عليه إلا العظيم سبحانه وتعالى. واستخدم حرف(في)، في قوله تعالى "ويوم نبعث في كل أمة"؛ ليدل على أن النبي ﷺ من القوم. و(النون) في "وجئنا" للتعظيم ، فالمجيء بالنبي ﷺ أمر عظيم لا يقدر عليه إلا العظيم سبحانه وتعالى. ولكن لماذا جاء الفعل (نبعث) مضارعا والفعل (جئنا) ماضيا ؟

هذه الآية تسلية للنبي ﷺ، ولذا كانت الآية إبرازاً لشرف النبي ﷺ في الآخرة ، فجاء الفعل الخاص بالأنبياء "نبعث" ، والخاص بالنبي ﷺ "جئنا"، لأنّ فعل "بعث" لا يدل بمجرده إلا على الإرسال والإثارة دون الوصول ، بينما الفعل "جاء" يدل على الوصول ، فنقول : بعثت زيداً إلى السوق وهذا البعث لا يدل على الوصول بمجرده إلا بوجود قرينة دالة على وصول زيد إلى السوق ، أما قولنا : جاء زيد السوق. يعني أنه وصل[2].

."ونزلنا عليك" في الدنيا "الكتاب" أي: القرآن، والجملة مستأنفة "تبيانا لكل شيء" أي: بيانا له والتاء للمبالغة، فالتبيان أخص من مطلق البيان على قاعدة أن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى، ونظيره من المصادر التلقاء ولم يأت غيرهما وفي الأسماء كثير نحو التمساح والتمثال[3].

وخص بالذكر الهدى والرحمة والبشرى لأهميتها فالهدى ما يرجع من التبيان إلى تقويم العقائد والأفهام والإنقاذ من الضلال. والرحمة ما يرجع منه إلى سعادة الحياتين الدنيا والأخرى، والبشرى ما فيه من الوعد بالحسنيين الدنيوية والأخروية.

وكل ذلك للمسلمين دون غيرهم لأن غيرهم لما أعرضوا عنه حرموا أنفسهم الانتفاع بخواصه كلها.

فاللام في "لكل شيء" متعلق بالتبيان، وهي لام التقوية، لأن «كل شيء» في معنى المفعول به لـ "تبيانا". واللام في للمسلمين لام العلة يتنازع تعلقها «تبيان وهدى ورحمة وبشرى» وهذا هو الوجه[4].

([1])- الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج13، ص201-202.

([2])- سامي وديع القدومي، مصدر سابق، ص284-287.

([3])- القنوجي (أبو الطيّب محمد صديق خان بن حسن بن علي الحسيني القنوجي)، فتح البيان في مقاصد القرآن، راجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دط، 1412هـ-1992م، ج7، ص300.

([4])- الطاهر بن عاشور، مصدر سابق، ج13، ص204.

مما سبق نخلص أنّ نعمة الهداية من النعم التي منّ الله بها على عباده، فأنزل إلينا كتابا عجز جهابذة الفصاحة والبلاغة عن الإتيان بمثله، وبيّن لنا الطرق التي نسلكها في حياتنا وذلك إتباع طريق الحق والإيمان والإبتعاد عن الهوى ؛ فيوم القيامة تأتي كل أمة مع رسولها والرسول ﷺ شهيدا على قومه، فمن أنكر نعمة الله فيوم الفصل لاينفع الإنكار ولا يفوز بمرضات إلا من أتى الله بقلب سليم.

وختاما يمكن أن نستنتج مايلي:

ـ التّأكيد على أنّ وجوه إعجاز القرآن الكريم متعدّدة أهمّها الإعجاز البياني؛ فهو يلازم القرآن الكريم في كلّ مفرداته وآياته وسوره.

- يظهر الإعجاز البيانيّ في هذه السورة من خلال نعم عديدة تبرز دقّة القرآن الكريم في التعبير عن موضوعاته، منها: نعمة إرسال الرسل ونعمة الهداية.

- إنّ ذكر النّعم الإلهية الواردة في هذه السورة جاء بأسلوب يهدف إلى تذكير الإنسان بمصدر هذه النّعم، ودعوته إلى شكر الله والإيمان به والانقياد له، فبعد ذكر هذه النّعم تُختم الآيات بعبارات مثل:" لعلكم تشكرون"، "تهتدون"، "تسلمون" "تعقلون"... وهي الغاية التي أرادها الله.

- وذُكر في السورة نعم معنوية وذلك للدّلالة على أنّها تغمر الإنسان في كل مستويات حياته، وهذا يجعل الإنسان موقنا بقدرة الله، قريبًا منه بعيداً عن المعاصي.

- لقد عالج القرآن الكريم هذه النّعم باستخدام ألفاظ وتراكيب جاءت متمكّنة مناسبة لسياق الآيات، إذ لا يمكن الوصول إلى المعنى المراد بغير هذه الألفاظ والتراكيب، وهذا يؤكّد المصدر الرّباني للقرآن الكريم .